

الباب الثانى

منهج ابن تيمية بالنسبة لمذهبه فى الوجدانية

الفصل الأول

منهج ابن تيمية فى الوجدانية

١- التزام شيخ الإسلام بالكتاب والسنة :

التزم شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتاباته - عن الوجدانية وفى كتاباته الأخرى عن وجود الله والأسماء والصفات والجبر والاختيار والنبوة والمعاد - بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ولعلنا فى هذا المقام نذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن داعياً، فقَالَ له «بِمَ تَحْكُمُ؟» قَالَ: بِكِتَابِ اللَّهِ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟» قَالَ: بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ قَالَ: أَجْتَهُدُ بِرَأْيِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يَرْضَى رِسُولَهُ»^(١). فقد طبق شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتزم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بعد ذلك اجتهد برأيه، هذا الرأى النابع من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا المنطلق، منطلق التزامه بالكتاب والسنة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا» كما قال تعالى: ﴿ذَبْنِي أَدَمَ إِمَامًا يَا أَيُّهَا رُسُلُ مَنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ مَا لَيْتِي فَمَنْ أَنْقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) د. محمود محمد على - العلاقة بين المنطق والفقه عند مفكرى الإسلام، الطبعة الأولى.

القاهرة ٢٠٠٠ ص ١٧. والحديث رواه أبو داود.

يَحْرُوتُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿٣١﴾. وقوله ﴿ قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا بُنَيَّ كُفُّوا عَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿٣٣﴾ ﴾. قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية كما في الحديث الذي رواه الترمذى وغيره عن على بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم «إنها ستكون فتن» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حيل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء، وفي رواية ولا تختلف به الآراء، هو الذى لم تنته الجن إذا سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدى إلى الرشد، من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾. وقال تعالى ﴿ الْمَص ﴿١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣١﴾. وقال: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ

(١) سورة الأعراف - الآية ٣٥.

(٢) سورة طه الآيات ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) سورة الأنعام - الآية ١٥٣.

(٤) سورة الأعراف - الآيات ١ - ٣.

فَأَنبِئُوهُمْ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَنِيْلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴿١﴾. فذكر سبحانه أنه يجزى الصادق عن آياته مطلقاً سواء كان مكذباً أم لم يكن سوء العذاب بما كانوا يصدقون، بين ذلك أن كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر سواء اعتقد كذبه أم استكبر عن الإيمان به أم أعرض عنه اتباعاً لما يهواه أم ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء به فهو كافر وقد يكون كافراً من لا يكذبه إذا لم يؤمن به^(١).

٢ - دور العقل عند شيخ الإسلام :

نجد أن العقل عند شيخ الإسلام ابن تيمية مجرد متقبل للعلوم الشرعية، وليس للعقل أن يغير فيها، لأنها علوم ثابتة لا تتغير، مثل علمنا بوحداية الله تعالى وأسمائه وصفاته وصدق رسله وملائكته وكتبه وغير ذلك، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «فتبين بذلك أن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه، ولا معطياً له صفة لم تكن له ولا مفيداً له صفة كمال، إذ العلم مطابق للمعلوم المستغنى عن العلم تابع له ليس مؤثراً فيه، فإن العلم نوعان أحدهما العملي، وهو ما كان شرطاً في حصول المعلوم، كتصور أحدنا لما يريد أن يفعله، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به محتاج إليه. والثاني الخبري النظري، وهو ما كان المعلوم غير مقتد في وجوده إلى العلم به، كعلمنا بوحداية الله تعالى

(١) سورة الأنعام - الآيات ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) ابن تيمية - بيان موافقة صريح العقول لصحيح المنقول - على هامش كتاب منهاج السنة النبوية. المكتبة العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٢٢، ص ٢٨، ٢٩.

وأسمائه وصفاته وصدق رسله وملائكته وكتبه وغير ذلك ، فإن هذه المعلومات ثابتة سواء علمناها أم لم نعلمها ، فهي مستغنية عن علمنا بها ، والشرع مع العقل هو من هذا الباب ، فإن الشرع المنزل من عند الله ثابت في نفسه سواء علمناه بقولنا أم لم نعلمه وهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج إليها في دنياه وآخرته ، وانتفع بعلمه به وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ، ولو لم يعلم لكان جاهلاً ناقصاً^(١) .

٣ - فكرة التأويل عند شيخ الإسلام :

وإذا كان العقل عند شيخ الإسلام ابن تيمية مجرد متقبل للعلوم الشرعية ، فإن شيخ الإسلام يرفض فكرة التأويل التي أتى بها المتكلمون والفلاسفة وهي «صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يحتمله اللفظ» ، ففى كتب علم الكلام المتأخرة نجد أن هذا المعنى مستعمل فى معظمها إن لم يكن فى جميعها ، فهو عند الرازى فى «تأسيس التقديس» وبقية كتبه ، وعند الغزالى من قبل فى «الجامع العوام» و«فيصل التفرقة» ومن قبلهما عند إمام الحرمين فى «الشامل» و«الإرشاد» و«العقيدة النظامية» وهو عند ابن رشد فى «فصل المقال»^(٢) .

ويرجع شيخ الإسلام ابن تيمية إلى القرآن الكريم لنعنى التأويل ويتمسك به ، فلفظ التأويل فى القرآن يُراد به ما يؤول الأمر إليه ، وإن كان موافقاً لمدلول اللفظ ومفهومه فى الظاهر ويراد به تفسير الكلام وبيان معناه ، وإن كان موافقاً له وهو اصطلاح المفسرين المتقدمين كمجاهد وغيره ، فالصحابة

(١) ابن تيمية - المصدر السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) د. محمد السيد الجليلين - الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ، الطبعة الأولى ،

لقاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤٧ .

والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم، يريدون بالتأويل هذين المعنيين^(١).

ويضرب شيخ الإسلام الأمثلة من القرآن الكريم لمعنى التأويل لهذين المعنيين سواء الرجوع والمآل أم معنى التفسير، مثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٢).

فقد فسر مفسرو السلف التأويل هنا بالثواب والجزاء والعاقبة، ومؤدى ذلك أن يكون بمعنى المآل، لأن الثواب والجزاء هو مآل الطاعة ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ، يَقُولُ الَّذِينَ كَذَبُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ^(٤) ﴿٥٣﴾. وواضح أن المعنى هنا هو المآل والعاقبة، فإنه لا يكون يوم القيامة إلا المآل والعاقبة.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٥) بمعنى التفسير^(٦).

(١) ابن تيمية - بيان موافقة صريح العقول لصحيح المنقول - على هامش كتاب منهاج السنة النبوية، ص ٥ - ٦.

(٢) سورة النساء - الآية ٥٩.

(٣) سورة الأعراف - الآية ٥٢ - ٥٣.

(٤) سورة يوسف - الآية ٦.

(٥) محمد أبو زهرة - ابن تيمية، ص ٢٢٩.

وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية قد فسر التأويل بمعنى المرجع والمآل أو بمعنى التفسير، فإنه ليس معنى ذلك أنه استبعد التفسير العقلي أو التأويل العقلي، بل إننا نجده قد التزم بالمنهج العقلي بجانب الكتاب والسنة. ومن الأمثلة على ذلك مسألة كلام الله، فإنه يثبتها أولاً بأدلة نقلية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ (١٤٣) ﴿١﴾. وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤) ﴿٢﴾، ثم يثبتها بأدلة عقلية، فالله سبحانه وتعالى كامل لا يتصف بنقص، وصفة الكلام هي صفة كمال، فالتكلم أكمل من غير التكلم، ولذلك يجب أن يكون الله سبحانه وتعالى متكلماً.

٤ - القياس عند شيخ الإسلام :

ويأخذ شيخ الإسلام ابن تيمية بالقياس الصحيح وهو الذي فيه الأصل والفرع في مناط الحكم، ولم يعارضه ما هو أرجح منه، وأيضاً يأخذ بالقياس المأخوذ من النص، ويقول شيخ الإسلام في ذلك «قد ثبت عن الصحابة أنهم قالوا بالرأى واجتهاد الرأى وقاسوا، كما ثبت عنهم ذم ما ذموه من القياس. قالوا: وكلا القولين صحيح.

فالمذموم من القياس المعارض للنص كقياس الذين قالوا إنما البيع مثل الربا وقياس إبليس الذي عارض به أمر الله بالسجود لآدم وقياس المشركين الذين قالوا تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله، قال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يُوْحُوْنَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١١١) ﴿٣﴾. وكذلك القياس الذي لا يكون الفرع فيه مشاركاً للأصل في مناط الحكم، فالقياس

(١) سورة الأعراف - الآية ١٤٣.

(٢) سورة النساء - الآية ١٦٤.

(٣) سورة الأنعام - الآية ١٢١.

يذم إما لفوات شرطه وهو عدم المساواة فى مناط الحكم وإما لوجود مانعه وهو النص الذى يجب تقديمه عليه، وإن كانا متلازمين فى نفس الأمر، فلا يفوت الشرط إلا والمانع موجود ولا يوجد المانع إلا والشرط مفقود، وأما القياس الذى يستوى فيه الأصل والفرع فى مناط الحكم ولم يعارضه ما هو أرجح منه، فهذا هو القياس الذى لا يمتنع، ولا ريب أن القياس فيه فاسد وكثير من الفقهاء قاسوا أقيسة فاسدة بعضها باطل بالنص، وبعضها مما اتفق السلف على بطلانه، لكن بطلان كثير من القياس لا يقتضى بطلان جميعه، كما أن وجود الكذب فى كثير من الحديث لا يوجد كذبه جميعه ومدار القياس على أن الصورتين يستويان فى موجب الحكم ومقتضاه، فمتى كان كذلك كان القياس صحيحاً بلا شك»^(١).

٥- قياس الأولى عند شيخ الإسلام :

ويتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن قياس الأولى وهو القياس الذى جاء به القرآن الكريم فى تقرير أصول الدين فى مسائل التوحيد والصفات والمعاد ونحو ذلك. فعندما نقارن مثلاً بين خلق السماوات والأرض وبين خلق الإنسان، نجد أن خلق السماوات والأرض أعظم وأبلغ، وأن خلق الإنسان أيسر وأولى، وفى هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «والإنسان يعلم الإمكان الخارجى، تارة بعلمه بوجود الشئ وتارة بوجود نظيره، وتارة بعلمه بوجود ما الشئ أولى بالوجود منه، فإن وجود الشئ دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه، ثم إنه إذا بيّن كون الشئ ممكناً، فلا بد من بيان قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

(١) ابن تيمية - منهاج السنة النبوية - الجزء الثانى، ص ٩٢.

فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩١﴾ ﴿١﴾. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ ﴿٢﴾. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُجْحِيَ الْمَوْقِنَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ ﴿٣﴾. وقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴿٥٧﴾﴾ ﴿٤﴾. فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق أمثال بنى آدم والقدرة عليه أبلغ، وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة على ذلك^(٥). ويضرب شيخ الإسلام ابن تيمية مثالا عن قياس الأولى في التوحيد في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴿١٨﴾﴾ ﴿٦﴾، أى كخيفة بعضكم بعضا، فبين سبحانه أن المخلوق لا يكون مملوكه شريكه فى ماله حتى يخاف مملوكه كما يخاف نظيره، بل تمتنعون أن يكون المملوك لكم نظيرا، فكيف ترضون أن تجعلوا ما هو مخلوقى ومملوكى شريكا لى يدعى ويعبد كما ادعى وأعبد كما كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك^(٧).

(١) سورة الإسراء - الآية ٩٩.

(٢) سورة يس - الآية ٨١.

(٣) سورة الأحقاف - الآية ٣٣.

(٤) سورة غافر - الآية ٥٧.

(٥) ابن تيمية - بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول - على هامش كتاب منهاج

المنة النبوية، ص ١٦ - ١٧.

(٦) سورة الروم - الآية ٢٨.

(٧) نفس المصدر، ص ١٩.

الفصل الثانى

المنهج النقدى عند شيخ الإسلام

ومن خلال التزام شيخ الإسلام بالكتاب والسنة، ومن خلال التزامه بالقياس الصحيح، والقياس المأخوذ من النص، وقياس الأولى المأخوذ من القرآن الكريم، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية قد أخذ بالمنهج النقدى على أوسع نطاق؛ فنجده ينقد علماء الكلام والفلاسفة والمتصوفة، ويتعدى هذا إلى أهل الديانات الأخرى المسيحية واليهودية، حتى إن أحد الباحثين يصفه بأنه أكبر نقادة فى الإسلام^(١).

١ - نقد شيخ الإسلام لعلم الكلام :

نجد شيخ الإسلام ابن تيمية ينقد علم الكلام، وهو العلم الذى قام من أجل الدفاع عن أصول العقيدة الإسلامية^(٢)، نجده يقوم بنقد هذا العلم، فإن ألفاظ الجوهر والجسم والتحيز والعرض ونحو ذلك التى أتى بها المتكلمون، لم يأت بها الدين، ولا تكلم بها النبى صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة والتابعين ولا أحد من الأئمة المتبوعين. يقول شيخ الإسلام فى ذلك «فالسلف والأئمة لم يذموا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة لكلف الجوهر والعرض والجسم وغير ذلك، بل لأن المعانى التى يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم فى الأدلة والأحكام ما يجب النهى عنه؛ لاشتمال

(١) محمد خنبل هراس - ابن تيمية السلفى، الطبعة الأولى، طنطا ١٩٥٢، ص ٣٢.

(٢) نوران الجزيرى - الغايبية عند الأشاعرة. هيئة الكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٢.

هذه الألفاظ على معانٍ مجملة في النفس والإثبات كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع فقال: هم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مفارقة الكتاب يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم.

فإذا عرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات، ووزنت بالكتاب والسنة بحيث يثبت الحق الذي أثبتته الكتاب والسنة، وينفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة كان ذلك هو الحق بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الألفاظ نفيًا وإثباتًا في الوسائل والمسائل من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو من الصراط المستقيم، وهذا من مثار الشبه؛ فإنه لا يوجد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة والتابعين ولا أحد من الأئمة المتبوعين أنه علق بمسمى لفظ الجوهر والجسم والتحيز والعرض ونحو ذلك شيئًا من أصول الدين لا الدلائل ولا المسائل^(١).

ولكن مسائل أصول الدين عند شيخ الإسلام ابن تيمية التي أتى بها القرآن، وأتى بها النبي صلى الله عليه وسلم، والتي يجب اعتقادها ويجب أن تذكر قولاً وعملاً، هي مسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد أو دلائل هذه المسائل، وهي الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك، والتي جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه حيث قال ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾^(٢)، وذلك مثل قياس الأولى^(٣).

(١) ابن تيمية - موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول - على هامش كتاب منهج السنة

النبوية، ص ٢٣.

(٢) سورة الروم - الآية ٥٨.

(٣) ابن تيمية - المصدر السابق - ص ١٣ - ١٥.

٢ - نقد شيخ الإسلام للفلاسفة :

ثم نجد شيخ الإسلام ابن تيمية يهاجم الفلاسفة كالفارابي (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ)، وابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ)، وابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ)، ويقول عنهم: إنهم أهل الوهم والتخيل، فهؤلاء الفلاسفة يذكرون أن الأنبياء أخبروا عن الله وعن اليوم الآخر وعن الجنة والنار وعن الملائكة بأمور حسية غير صحيحة مثل أن الله جسم عظيم وأن الأبدان تعاد، وأن ثواب الجنة وعقاب النار محسوسان وذلك لمصلحة الجمهور، فهذا الوهم والتخيل للأنبياء - كما يزعم الفلاسفة - لإقناع الجمهور بدعوتهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك «فأهل الوهم والتخيل هم الذين يقولون إن الأنبياء أخبروا عن الله وعن اليوم الآخر وعن الجنة والنار بل عن الملائكة بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه، لكنهم خاطبوهم، بل يتخيلون به، ويتوهمون به أن الله جسم عظيم، وأن الأبدان تعاد، وأن له نعيماً محسوساً وعقاباً محسوساً وإن كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون به ويتخيلون أن الأمر هكذا، وإن كان هذا كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور، إذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذا الطريق»^(١).

فشيخ الإسلام يذكر أن الفلاسفة يتهمون الأنبياء بالكذب وذلك لمصلحة الجمهور، مثل ابن سينا الذي يفضل النبي على الفيلسوف لأنه علم ما علمه الفيلسوف وزيادة، وأمكن أن يخاطب الجمهور بطريقة يعجز عن مثلها الفيلسوف، ومن هؤلاء من يفضل خاتم الأولياء على النبي مثل ابن عربي، ومنهم من يفضل الفيلسوف على النبي مثل الفارابي.

(١) ابن تيمية - المصدر السابق، ص ٣.

٣ - نقد شيخ الإسلام لبعض أهل التصوف :

نجد شيخ الإسلام ابن تيمية يهاجم بعض أهل التصوف، الذين لم يفرقوا بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فهؤلاء الصوفية الذين يقولون بتوحيد الربوبية، يقولون ما في الوجود غيره ولا سواه، بمعنى أن المخلوق هو الخالق والمصنوع هو الصانع، والتوحيد الحق عند شيخ الإسلام هو توحيد الألوهية، فلا نعبد إلا الله سبحانه وتعالى، فلا نجعل له نداً في ألوهية ولا شريكاً ولا شافعياً.

فهؤلاء الصوفية الذين يشير إليهم شيخ الإسلام ابن تيمية يشاهدون ربوبية الله تعالى لعباده التي عمت جميع البرايا ويظن أن دين الله الموفقة للقدر سواء كان ذلك في عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه، أم كان فيه الإيمان بكتبه ورسله والإعراض عنهم والكفر بهم. وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض وبين المتقين والفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ويجعلون الإيمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان، وأهل الجنة كأهل النار وأولياء الله كأعداء الله، وربما جعلوا هذا من باب الرضا بالقضاء وربما جعلوه التوحيد والحقيقة^(١).

وهذه الأقوال والأفعال، كما يرى شيخ الإسلام ابن تيمية، هي شر من مقالات اليهود والنصارى، بل من مقالات المشركين والمجوس وسائر الكفار من جنس مقالة فرعون والدجال ونحوها ممن ينكر الصانع الخالق البارئ رب العالمين أو يقولون إنه هو أو أنه حل فيه.

(١) ابن تيمية - مجموعة الرسائل والمسائل - تعليق: حياة مأمون شيحا - المجلد الأول، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٦ ص ٤١.

وهؤلاء كفار بأصل الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً؛ فلا نجعل له نداً في الوهية ولا شريكاً ولا شقيقاً^(١).

وأيضاً يهاجم شيخ الإسلام ابن تيمية بعض أهل التصوف الذين أتوا بأسماء دائرة على ألسنتهم مثل الغوث الذى يكون بمكة، والأوتاد الأربعة، والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة، فهذه الأسماء ليست موجودة فى كتاب الله ولا هى أيضاً مأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم^(٢).

٤- نقد شيخ الإسلام للمسيحية واليهودية :

ونجد شيخ الإسلام ابن تيمية يتعدى نقده إلى أهل الديانات الأخرى المسيحية واليهودية، فالإسلام دين التوحيد، والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله، والله سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال. يقول شيخ الإسلام فى ذلك: «المسلمون وسط فى التوحيد بين اليهود والنصارى، فاليهود تصف الرب بصفات النقص التى يختص بها المخلوق، ويشبهون الخالق بالمخلوق، كما قالوا إنه بخيل وإنه فقير، وإنه لما خلق السماوات والأرض تعب، وهو سبحانه الجواد الذى لا يبخل، والغنى الذى لا يحتاج إلى غيره، والقادر الذى لا يمسه لغوب، والقدرة والإرادة والغنى عن سواه هى صفات الكمال التى تستلزم سائرهما، والنصارى يصفون المخلوق بصفات الخالق التى يختص بها، ويشبهون المخلوق بالخالق، حيث قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، وأن الله ثالث ثلاثة، وقالوا المسيح ابن الله، واتخذوا أحيارهم وربانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا

(١) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤.

إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، فالمسلمون وحدوا الله ووصفوه بصفات الكمال ونزهوه عن جميع صفات النقص، ونزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات، فهو موصوف بصفات الكمال لا بصفات النقص، وليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله^(١).

تعقيب :

وهكذا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية في منهجه عن الوحدانية يلتزم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، المصدر الأول للدين والشريعة الإسلامية، والعقل عنده متقبل للعلوم الشرعية لأنها علوم ثابتة لا تتغير مثل علمنا بوحدانية الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته وصدق رساله وملائكته وكتبه وغير ذلك.

ثم نجده يرجع فكرة التأويل في معناها إلى القرآن الكريم، وهو المآل والمرجع أو تفسير الكلام وبيان معناه، وبذلك يرفض فكرة التأويل التي أتت بها المتكلمون والفلاسفة وهي «صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يحتمله اللفظ» ثم يأخذ شيخ الإسلام بالرأى والقياس الصحيح، والقياس المأخوذ من النص سواء كان هذا النص هو القرآن أم السنة، ثم يأخذ بقياس الأولى المأخوذ من القرآن الكريم.

ثم يقوم شيخ الإسلام ابن تيمية بنقد مناهج المذاهب الإسلامية في الوحدانية مثل علم الكلام والفلسفة والتصوف، ويتعدى هذا النقد إلى أهل الديانات الأخرى مثل المسيحية واليهودية.

(١) ابن تيمية - منهاج السنة النبوية - الجزء الثالث، ص ٤٢.